

دعوة إلى التراث الشعبي - الحلقة السادسة : كيفية دراسة التراث الشعبي المادي

مجلة التراث والمجتمع العدد 47 - سلسلة دعوة إلى التراث الشعبي - د. شريف كناخنة - 2008/02/20م - 11:30 ص



قمنا في الحلقة السابقة (الخامسة، العدد 46) بتبويب مادة الفلكلور إلى أربعة أبواب، ثم بدأنا بدراسة أحد هذه الأبواب وهو باب الثقافة المادية الشعبية، فبينما أهم مواصفاتها ومميزاتها، كما وضحنا الارتباط الشديد بين هذا النوع من التراث الشعبي من جهة والفن الشعبي من جهة أخرى. في الحلقة الحالية سنتحدث عن كيفية دراسة التراث الشعبي المادي بعد أن فهمنا طبيعة هذا الجزء من التراث الشعبي.

تقع دراسة الثقافة المادية الشعبية ضمن العلوم التي تدرس الثقافة والمجتمع بشكل عام والثقافة الشعبية بشكل خاص، أي ضمن ما يسمى بالعلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية ومنها علم الفلكلور والأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع وعلم النفس وعلم الاقتصاد والعلوم السريرية وغيرها. ولكن أقرب هذه العلوم إلى دراسة الثقافة المادية وأجدرها بدراستها هو الفلكلور والأنثروبولوجيا والأركيولوجيا. والحقيقة أن هذه العلوم اهتمت بالجزء غير المادي من الثقافة أكثر منها بالجزء المادي، وأن الكثير من دراسات الثقافة المادية لم تتعدّ مراحل الجمع والتبويب والوصف والتصنيف والمتحفة. ولكن الباحث المهتم يستطيع أن يجد عدداً لا بأس به من الدراسات التي استعملت أساليب إحصائية وتحليلية متطورة، خصوصاً تلك التي أجريت منذ الستينات من القرن العشرين، وهذه بعض نواحي التراث الشعبي المادي التي جرت وتجري دراستها:

1. الوصف والتبويب والتصنيف: مثل هذه الدراسات تجري عادة في المتاحف، خصوصاً المتاحف الفلكلورية، حيث يجري جمع عدد كبير من القطع والأدوات المادية التي تُعرف بأنها ثقافية، أي التي جرى وصنعها أو تحويلها أو استعمالها من قبل بني الإنسان، ثم يجري وصف وتعريف لكل منها ومن ثم تصنيفها وتبويبها حسب أنواعها، واستعمالاتها، موادها، تاريخ صنعها، مكان صنعها، حجمها، شكلها، لونها، نوع المادة المصنوعة منها، أو أي صفة ظاهرة أخرى، وتحفظ هذه المعلومات في كتالوجات وقد يجري تصويرها ووضع الصور والمواصفات الظاهرة في دليل.



2. **تحليل الأنماط:** انبثقت هذه الدراسات من النظرية التطورية والنظرية الانتشارية اللتان سادتتا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ويستعمل هذا النوع من الدراسات كثيراً في علم الآثار (الأركيولوجيا) وفي حقل تاريخ الفن، وتعتمد هذه الدراسات على استعمال الصفات الظاهرة والملموسة التي ذكرناها في البند السابق.
- هذه الصفات تستمر لمدة طويلة ويمكن قياسها بدقة ولذلك يمكن مقارنتها وترتيبها حسب مقاسات هذه الصفات، أي حسب حجمها أو وزنها أو مكان وجودها أو زمن صنعها في أنماط "عمودية" أي تاريخية أو زمنية، أو في أنماط "أفقية" أي جغرافية أو مكانية، ويمكن رسم خرائط لأماكن انتشارها وللتغيرات التي طرأت على أماكن انتشارها عبر الأزمان. كذلك يمكن تطبيق ما قلناه عن هذه الصفات على أنماط الزخارف والنقوش الموجودة على هذه القطع.
3. **تحليل أساليب الصناعة والتكنولوجيا المستعملة:** من الطبيعي أن يؤدي الاهتمام بالأدوات والقطع الثقافية المادية نفسها وبصفتها المادية الملموسة والظاهرة كما جاء في البندين السابقين إلى الاهتمام بكيفية صناعة أو بناء هذه الأدوات وبالتكنولوجيا التي استعملت في صنعها أو بنائها ومراحل التصنيع وبالمواد الخام التي صنعت منها وكيفية الحصول عليها، وهذا أدى إلى دراسة العلاقة بين الإنسان والبيئة الطبيعية ودراسة طرق توافق الإنسان مع البيئة وعلاقة ذلك بتطور المراحل البدائية لظهور التكنولوجيا وتطور وسائل الإنتاج والتركيبية الاجتماعية الممكنة اعتماداً على هذه التكنولوجيا ووسائل الإنتاج وكيفية الحصول على المعرفة المطلوبة للتصنيع وكيفية انتقالها عبر الأجيال وانتشارها بين المجتمعات المحلية، وموقع الصناعات في التركيبية الاجتماعية، والتركيبية النفسية لصانعي الأدوات ومستعمليها وأنواع شخصياتهم.
4. **دراسة الاستعمالات والمعاني الثقافية-الاجتماعية:** تحاول هذه الدراسات فهم الدور الذي تقوم به الثقافة المادية في النظم الاجتماعية - الثقافية المعنوية أو المجردة التي هي أوسع من الأشياء المادية التي تدخل ضمنها. فيمكن مثلاً دراسة الدور العملي أو الرمزي الذي تقوم به الأشياء المادية من أدوات، ملابس، تماثيل، أبنية وغيرها في النظام الديني لمجتمع من المجتمعات، أو الدور الذي يقوم به تلبس الأشياء المادية من أدوات، ملابس، أواني، طعام، هدايا في المحافظة على نظم وعلاقات القرابة أو الصداقة أو الزواج في مجتمع من المجتمعات.
5. **دراسات في الاتصال والتفاعل:** هذه الدراسات تعتمد على الفكرة القائلة بأن الأفراد والمجموعات يستعملون الأشياء المادية في تفاعلهم كلغة يوصلون بواسطتها المعاني والرسائل بين الأفراد في نفس المجموعة وبين المجموعات المختلفة. في هذه التفاعلات تستعمل الأدوات أو الأشياء المادية أو صفاتها وأبعادها ومميزاتها كما تستعمل مفردات اللغة في إيصال الرسائل ويمكن استعمال عدد منها بترتيبات وأنماط مختلفة لإيصال معاني معقدة، فالملابس مثلاً يمكن أن تستعمل لإيصال الكثير من المعاني فتصميم الملابس وطريقة لبسها تنقل رسائل عن كيف يرى الفرد جسده وكيف يريد أن يراه الناس ولون الملابس قد ينقل رسالة عن الطبقة الاجتماعية وغير ذلك. هذا النوع من الدراسات يحاول فهم لغة الثقافة المادية ولغة بعض أنظمتها الفرعية كنظام الملابس أو نظام الطعام أو نظام البناء في مجتمع من المجتمعات أو في مؤسسة اجتماعية معينة.

6. دراسات من خلال التحليل البنائي: هذه الدراسات تنظر إلى الثقافة على أنها مكونة من عدد محدود من النظم. مثل النظام الديني، نظام القرابة، نظام اقتصادي، وغير ذلك من الأنظمة وتعتبر الثقافة المادية إحدى هذه الأنظمة. وهي ترى تشابهاً أو تماثلاً بين الأنظمة المختلفة في نفس الثقافة، وكذلك بين أي وحدة داخل النظام والنظام ككل، وأن الثقافة المادية بطبيعتها كونها مادية مجسمة وملموسة تكون أسهل من غيرها للقياس والتحليل والدراسة، ولذلك يفضل الكثيرون دراسة وتحليل بعض نظم الثقافة المادية ثم محاولة فهم النظم المعنوية المجردة في الثقافة مثل الفن، أو الدين عن طريق إسقاط ما يرونه في النظام المادي على النظم غير المادية أو المجردة. فقد ينطلق الباحث من سؤال كالتالي مثلاً: إلى أي درجة أو كيف ينعكس النظام الديني أو إدراك المجتمع لطبيعة الكون في نظام الطعام أو نظام اللباس لذلك المجتمع؟ أو قد يسأل الباحث: هل هناك تشابه أو تناسق بين تنظيم الأثاث في البيوت في المجتمع الفلاني وبين التركيبة الاجتماعية أو نظام القرابة في ذلك المجتمع؟

7. دراسة الطبيعة والثقافة: هنالك اعتقاد سائد، يؤخذ على أنه حقيقة واقعة، ويقول هذا الاعتقاد أن البيئة الطبيعية من مصادر طبيعية وتضاريس وطقس ودرجات حرارة وغير ذلك من مقومات البيئة الطبيعية تؤثر على الأشياء المادية المصنوعة والمستعملة فيها من حيث موادها وشكلها ووظائفها واستعمالاتها وطريقة صنعها أو بنائها. كذلك يسود الاعتقاد بأن البيئة الثقافية - الاجتماعية بتراكيبها وعلاقتها وتجاربها المشتركة ومعتقداتها وطرق إدراكها تؤثر على الأدوات أو الأشياء المادية المصنوعة والمستعملة فيها أيضاً من حيث شكلها وبنائها ووظائفها واستعمالاتها وزخرفتها وغير ذلك من مواصفاتها. الكثير من الدراسات تقبل هذا المنطق كجزء من معطيات الدراسة وتبدأ من القطع والأدوات الثقافية المادية الموجودة في المتاحف أو في المجموعات الخاصة لبعض الأفراد وتسأل: بناء على الصفات والمميزات الظاهرة الموجودة في هذه الأدوات، ما هي مواصفات البيئة الطبيعية أو الثقافية التي صنعت واستعملت فيها هذه الأدوات؟ وبما أن الثقافة المادية تستعمل عادة في الحياة اليومية للمجتمع فإن هذه الدراسات تسأل: بناء على الثقافة المادية الموجودة لدينا كيف كانت الحياة اليومية للناس الذين صنعوها واستعملوها؟ وتفترض مثل هذه الدراسات طبعاً أن الأدوات التي تتشابه في صفاتها الظاهرة تكون قد أنت من ثقافات مشتركة أو متشابهة.

8. دراسات الاتصال الثقافي والتغير الثقافي - الاجتماعي: الثقافات الإنسانية المختلفة تلتقي وتتصل وتؤثر في بعضها البعض بدرجات مختلفة وتؤدي إلى درجات مختلفة من التتقف أو التغير الاجتماعي - الثقافي المتأثر بالثقافات الأخرى. هذه المؤثرات تترك أثرها على حياة الفنان أو الحرفي وعلى طرق إنتاج الأدوات وعلى طرق استعمالها. هنالك الكثير من الدراسات التي اهتمت بدور الثقافة المادية في حالات الاتصال الثقافي وكيف تعكس الثقافة المادية الاتصال وكيف تكون جزءاً من هذا الاتصال وكيف تعكس التغير الاجتماعي أو مدى الاستمرارية رغم الاتصال.

9. التحليل المادي - الماركسي: هنالك دراسات اهتمت بفهم علاقة الثقافة المادي بالسلطة السياسية والثقافية والاقتصادية، والرمزية، وفهم التقسيم الوظيفي (الجنسي والطبقي) في إنتاج واستعمال الثقافة المادية لأغراض عملية ورمزية، ودور الأشياء المادية في استمرارية علاقات التسلط بين الفئات الاجتماعية المختلفة.



10. دراسات وجهة نظر أصحاب الثقافة المادية: جميع أنواع الدراسات التي ذكرناها حتى الآن تعتمد على وجهة نظر الدارس أي عالم الفلكلور أو عالم الأنثروبولوجيا الذي يقوم بإجراء هذه الدراسات. هذا يعني أن الدارس يحاول فهم الثقافة المادية لمجتمع ما - عادة مجتمع محلي صغير في ثقافة أجنبية أو عربية على الدارس - عن طريق إخضاعها للمعايير "العلمية" أو "الأكاديمية" أو للمعايير المستعملة في ثقافة الدارس أو الباحث نفسه. أما في الدراسات التي نحن بصددنا الآن فإن الباحث يحاول معرفة المعايير والمفاهيم الموجودة عند صانع الأدوات أو بناء المجتمع المحلي الذين صنعت الأدوات لتقوم بسد حاجاتهم وتلبية رغباتهم، فيتساءل هؤلاء الباحثون عن الأفكار والعواطف والمعاني التي وضعها الفنان أو الصانع في القطعة الثقافية المادية والرسائل التي قصد إيصالها لأفراد مجتمعة والقيم الفنية والجمالية التي جسدها فيها والوظائف التي صنعتها من أجلها والاستعمالات التي توقعها لتلك الأداة.

كذلك يتساءل الباحث هنا عن كيفية فهم أبناء المجتمع المحلي، الذي صنعت فيه الأداة، لتلك الأداة والقيم والمعايير التي يربطونها في تقييم الناحية الفنية والجمالية لها ومدى صلاحيتها لتنفيذ الأدوار التي صنعت من أجلها في ذلك المجتمع.

هذه عشرة من أنواع الدراسات التي قام بها الباحثون أو الدارسون المهتمون بالثقافة المادية الشعبية والفنون الشعبية المتصلة بها وهي تلخص الأكثرية الساحقة من الدراسات التي أجريت من قبل علماء الفلكلور والأنثروبولوجيا في هذا المجال حتى الوقت الحاضر.